د. شاذلي عبد الغني إسماعيل
دكتوراه في الأدب والنقد

من مقاصد الصيام

لصيام رمضان العديد من المقاصد الإيمانية والتربوية والاجتماعية التي يمكنها أن تعيد تأسيس واقع جديد للفرد وللأمة، وأن تفتح أبواب الخير للإنسانية بأكملها، شريطة أن ننأى بأنفسنا عن تلك الصورة التي حذرنا منها النبي ﷺ حين قال: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش، ورب قائم حظه من قيامه السهر». (رواه أحمد)، وإذا أردنا أن نبدأ ميلادا جديدا لحياة تتحقق فيها مقاصد الصوم، علينا أن نعيش في كنف الأجواء الإيمانية للشهر المبارك في ظلال الطاعة والرضا، والحرص على أن تكون أفعالنا وأقوالنا في جميع أحوالنا نابعة عن تعاليم ديننا الذي يحقق الالتزام بنهجه سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

ومن المقاصد التي يحققها الصيام، والتي تظهر بجلاء ما يمكن أن يكون لهذا الشهر الكريم من فضائل ترقى بالنفس الإنسانية، وتمد المجتمع بعوامل القوة والسعادة والانسجام، ما يلي:

الصيام تقوية للإرادة

لقد كان الأوربيون في القرون الوسطى يفترون على الإسلام الأكاذيب، وينسجون حوله قصصا خرافية، وينسبون له أحكاما لا وجود لها إلا في مخيلتهم، وظلت بعض هذه الترهات تتردد على ألسنة البعض وفي كتاباتهم وكان على رأس هذه الافتراءات أن الإسلام دين يطلق للشهوات العنان، وقد رأى المؤلف والفيلسوف الإنجليزي «توماس كارليل» (١٧٩٥م ـــ ١٨٨١م) في صيام رمضان دليلا ظاهر الوضوح للرد على مثل هذه الأكاذيب، ولبيان أن الإسلام ليس بالدين الذي يترك المرء ذليلا لأوطار نفسه وشهواتها، كما أنه لا يسعى إلى تعطيل هذه الغرائز وكبتها لكنه وضع من الشرائع ما ينظمها، ويضمن للمجتمعات حياة سوية ولإدارتها أفرادا أقوياء، يقول توماس كارليل: «أي دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ من شهر رمضان تلجم فيه الشهوات، وتزجر النفس عن غاياتها، وتقرع عن مآربها؟ وهذا هو منتهى العقل والحزم، فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر، وإنما المنكر هو أن تذل النفس لجبار الشهوات، وتنقاد لحادي الأوطار والرغبات، ولعل أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطانا، وأن يجعل من لذاته لا سلاسل وأغلالا تعيبه

وتعتاص عليه إذا هم أن يصدعها، بل حليا وزخارف متى شاء فلا أهون عليه من خلعها، ولا أسهل من نزعها، وكذلك أمر رمضان»[1].

لقد حرص الإسلام على أن يتسم أبناؤه بكل السمات التي تؤهلهم ليكونوا بناة لحضارة إنسانية قوية وعامرة ترقى بالمنتسبين إليها وتحميهم من الوقوع أسرى لمتطلبات النفس المادية حيث تصبح هذه المتطلبات غاية ليس وراءها غاية في هذه الحياة الدنيا، ولا يمكن لمن أراد أن يسهم في هذا البناء الحضاري أن يكون خاضعا لنوازع نفسه، خانعا لمطالبها، خائر العزم أمام أوطارها وشهواتها، وهذه واحدة من ثمرات الصيام، فمن خلاله تدرك النفس ما تتمتع به من قوة تجعلها قادرة على الصبر أمام مطالبها المادية الملحة استجابة لأمر الله عز وجل.

الصيام والإخلاص

إن الإخلاص هو واحد من أعظم المقاصد الإيمانية التي تنميها فريضة الصيام في نفوس المؤمنين، فهو سر بين العبد وربه لا يبقي بصيامه أحدا سواه، ولا شك أن الإخلاص في العمل مما يقوي العزيمة ويهون الصعاب ويؤنس القلب وإن وعر الطريق وإن طال؛ لأن الغاية عظيمة لا يصل إليها إلا من أحسن القصد وأخلص النية، وقد وصف ابن القيم رحمه الله الصوم فقال: «هو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارا لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم»[2].

وبإخلاص القلب تتجلى مشاعر القرب من الخالق، ومن ثم يكثر السعي إلى ما فيه صلاح النفس وتزداد القدرة على تقويمها إن حادت عن الطريق أو مالت عن القصد، والإخلاص يملأ القلوب بالرغبة في نفع العباد وفي عونهم وإصلاح أحوالهم وهدايتهم ومعاملتهم بالحسنى والتسامح معهم رغبة في رضا الله عز وجل، فنفع الإخلاص يمتد من القلب ليشمل الإنسانية بأثرها.

وإن كان في الصيام تقوية للإرادة الإنسانية ومران لها على مواجهة رغائب الجسد ومصاعب الحياة، فإنه بتعويد النفس على الإخلاص يحررها من رغبتها في الظهور وسعيها إلى الفخر بالأفعال والرياء بها طمعا في رضا المخلوقين ورغبة في ثنائهم، يقول ابن قدامة: «اعلم: أن في الصوم خصيصة ليست في غيره، وهي إضافته إلى الله عز وجل حيث يقول سبحانه: «الصوم لي وأنا أجزي به»، وكفى بهذه الإضافة شرفا، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ (الحج: ٢٦). وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق ولا يدخله رياء.

الثاني: أنه قهر لعدو الله، لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب»[3].

الصيام وتوحيد الأمة

إن توحيد الأمة وجمع كلمتها وجعلها على قلب رجل واحد من المقاصد التي تتجلى بارزة في شعائر الدين الإسلامي، وشهر رمضان يجمع الأمة بأسرها في ظل مشاعر إنسانية مادية وروحية واحدة وفي ظل شعائر إيمانية معقودة بهدف واحد، وهذا من شأنه أن يوحد القلوب وأن يذيب الفوارق مهما تنوعت الأجناس واختلفت اللغات ومهما تعددت الألوان وبعدت المسافات.

لقد لاحظ المستشرق البريطاني المتخصص في الشأن الإفريقي «إيوان ميردين لويس» الطابع الإسلامي القوي في الطقوس الحياتية التي رآها متشابهة إلى درجة كبيرة لدى الجماعات المسلمة الكائنة في جنوب الصحراء الكبرى، وذكر أن التقويم الإسلامي بطقوسه الشعبية، وخصوصا في رمضان، شهر الصيام، يعطي طابعا متجانسا لتنظيم الحياة في جماعات كانت بينها في الماضي فروق كبيرة، وهناك سمات متشابهة تتجاوز الاختلافات الثقافية والعرقية الكبيرة لهذه المنطقة الواسعة[4].

ولعله يقصد بالطقوس الشعبية، شعائر الدين الإسلامي المرتبطة بالمواسم والمناسبات الإسلامية، والتي توحد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وتجمعهم تحت مظلة الطاعة لتعاليم الدين القويم الذي أمرهم بالوحدة والاعتصام ونهاهم عن الفرقة والتنازع.

الهوامش

١- توماس كارليل: الأبطال (ترجمة محمد السباعي)، القاهرة: المطبعة المصرية الزهرية، ١٣٤٩هـ، ١٩٣٠م، (ص: ٩٣، ٩٤).

٢- ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، بيروت: مؤسسة الرسالة، الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، الطبعة: السابعة والعشرون، (٢/ ٢٧).

٣- ابن قدامة: مختصر منهاج القاصدين، دمشق: مكتبة دار البيان، (ص ٤٣).

٤- إيوان ميردين لويس: الحدود القصوى للإسلام في أفريقيا وآسيا، من كتاب «تراث الإسلام» الجزء الأول (مجموعة من المترجمين)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة: مايو ١٩٩٨م، (ص: ١٣٥).